أضواء على مسرحية جديدة

« عزبة بيانوتي »

بقلم الدكتور شكري فيصل

حين اعود الليلة الى غرفتي بعد هذه الساعات الثلاث التي قضيتها في مسرح معهد الموسيقى العربية اجدني مدفوعا الى ان اتحدث عن المسرحية الجديدة التي تقدمها فرقة عبد الرحمن الخميسي : مسرحية بيانوتي.

ولست ادري كيف انقطعت الصلة ما بيني وبين انتاج عبد الرحمن الخميسي الادبي .. ولعل اعباء العمل في الجامعة وما كانت تقتضيه من تفرغ هي التي حالت بيني وبين ان اتابع كثيرا من الانتاج الحديث الذي اود ان لاانقطع عنه .

ويبدو ان الذي غاب عني من عمل « الخميسي » في الترجمة والتاليف لم يكن بسبب من انقطاعي فحسب .. ولكنه كان بسبب من انصراف « عبد الرحمن » الى اعداد فرقته وتقديم مسرحياته .

وفي ظني ان « محمود السعدني » مؤلف المسرحية و « الخميسي » ممثلها قدما ، هذا العام ، عملا بارزا في الحياة الفنية سواء في التاليف او الاخراج مع هذه الفرقة الناشئة المنطلقة .. وسيظل الذين شهدوا هذه الرواية يذكرون طويلا هذه الملهاة ـ المأساة التي استطاعت المسرحية ان تحكم حبكها وعرضها والنفاذ بها الى اعماق الناس .

١ ـ أمأساة ، هذه المسرحية أم ملهاة ؟

والذين اعلنوا عن المسرحية كانوا يقولون انها « كوميديا » .. ترى ، اصحيح هذا الوصف الذي اطلق عليها ؟.. هل كان الانسان اليقظ ، المتتبع ، الذي يشهد هذه المسرحية يحيا جو الملهاة .. أكان مؤلفها او احد من ممثليها حين كتبها او اخرجها يتنفس تنفس الضاحك اللاهي ؟

مامن شك في ان هنالك بعض المواقف التي تثير الضحك ، وبعض الاجوبة التي تنتزع القهقهة ، وبعض الحركات والاحداث التي تبعث على الابتسام .. ولكن ، اكان الغلاف العام للمسرحية ، والتفاصيل الجزئية الكثيرة فيها هي من هذا اللون الذي يبعث على الضحك الصافي.. ام كانت شيئا اخر مخالفا كل المخالفة ، بعيدا كل البعد ، عن الابتسام والقهقهة والضحك ؟..

في زعمي ان الكوميديا كانت مأساة .. ان القدر الضاحك منها انما كان رداء خارجيا شفافا ، وان احدا من الذين كانوا يتابعون المسرحية واعين او غافلين ، لم يكن يضحك دائما ، وانما كان يضحك احيانا ملء شفتيه .. ذلك اننا كنا مشدودين جميعا الى مأساة عنيفة هي مأساة هذه الاجيال المتلاحقة في الحياة العربية ، منذ ثورات مابعد الحرب الاولى ، وثورات فترات المعاهدات وما بعد المعاهدات حتى يوم الناس هذا .

ولكن القوة الفنية في « عزبة بيانوتي » في التاليف والتمثيل ، هي التي استطاعت ان تغلف هذه المأساة ، وان تهب بعض مواقفها بسمة الساخر ، او تهلل الضاحك ، وان تهيل عليها بعض الالوان الزاهية هنا وهناك .. على حين يضج الجانب الاكبر منها بالسواد الكالح ، ويبعث الاشفاق والحزن العميق .

أ ـ مأساة حسنين :

والحق ان شخصية حسنين في كل تطوراتها مأساة عميقة .. ولكنها مأساة من نوع خاص ، ومؤكد ان الانسان نفسه ليس هو الذي رسم طريقها ، وانما هو القدر الذي يمثله جيل حسنين كله ، قدر هذا الجيل الذي يغادر مرحلة من مراحل تكون الامة الى مرحلة اخرى .. يفارق مرحلة من مراحل التميع والضعف الى مرحلة جديدة من مراحل التمركز والقوة ، ويودع حياة غامضة تختلط فيها المفاهيم الى حياة اخرى واضحة ليس فيها الا مفهوم واحد هو مفهوم الحياة النقية السليمة .

ان « حسنين » والجيل الذي يمثله كان ضحية الحياة السياسية المتعفنة التي كانت تحياها مصر « والاقطار العربية الاخرى متقاربة في ذلك » بالذي أصلت من قيم ، ونشرت من مفاهيم ، وخلقت من الوان السلوك المريب الذي يحاول دائما ، وفي نفس الوقت الذي يكشف فيه عن ريبه وزيفه ان يجد لهذا الزيف المبررات .

ويعيش هذا الجيل ، جيل حسنين ، هذه الحياة على انها مأساة عميقة، لانه لايجد الطريق السليم الذي يضع اقدامه فيه .. ان اصوات الحرية، والجلاء ، والهزء بالاستعمار ، والايمان بان هذا الشعب أقوى من بطش المستعمر ، تصل الى اذنيه ، ولكنها لاتبلغ قلبه .. ذلك ان حب الحياة المزيفة قد طغى عليه الى حد بعيد .. وبلغ من طغيانه انه قلب القيم الحقيقة لهذه الحياة ، فجعل البناء للاجنبي بناء للوطن ، والتعمير للمصلحة المادية تعميرا لمصلحة الجماعة ، واعتبر المال وحده هو القيمة الكبرى في هذه الحياة .. وحين يكون المال وحده هو الذي يعيش في الذهن ، فان لنا ان نتصور اية مأساة انسانية يتردى فيها الفرد ، وتتردى فيها الجماعة .

ب ـ مأساة « أسماعيل » :

ولم تكن مأساة واضحة في حياة حسنين ، ولكنها كانت اشد وضوحا في حياة اخيه اسماعيل .. ان اسماعيل صورة اخرى من صور هذه المأساة الضاحكة التي تثير الدمع في عينيك في اللحظات التي ترسم فيها الابتسامة على شفتيك .. وفي بعض مواقف المسرحية كنت اجد دمعة كبرى في عيني ، فكنت اخنقها مرة ، وكانت تسبقني الى خدي مرة اخرى ، وكنت في كل مرة احاول ان اكتم ذلك وان احفظ هذا الانفعال المثير فيما بيني وبين نفسي .. ثم لم استطع ذلك ، فشكوت الذي انا فيه الى الصديق الكريم الذي كان الى جانبي ، فاذا هو يعاني مثل الذي اعانيه واذا هو يعيش اعماق هذه المأساة في كل بطل من أبطالها .

ومن الذي يستطيع ان ينجو من محيط المأساة ، هذا الذي وضعنا فيه « محمود السعدني » المؤلف ، وعبد الرحمن الخميسي الممثل حين مثل شخصية اسماعيل ، اخي حسنين ؟.. ومن الذي يستطيع ان يظل بمنجاة من تأثيرها العنيف .. لم يكن وجه حسنين الذابل ـ المتورد ، وعيناه النافذتان ـ الناعستان ، وحركاته المضطربة ـ المتزنة ، لم تكن هذه شيئا امام الكلام الذي كان يجري على شفتيه ، والاجواء التي كان ينشرها هذا الكلام .. ان اسماعيل عاش ثورة ١٩١٩ ، وكان خطيبا من خطبائها وبطلا من ابطالها ، قضى خمس عشرة سنة في السجن ثم خرج الى الحياة .. فلم يجد فيها ماكان يجب ان يجده .. ان خط الثورة الذي بدأ لم يتابع طريقه ، انقطع حينا ، وانحرف حينا ، وضل الشعب طريقه ، وبقي الانجليز في مصر يخلعون وينصبون ، ويأمرون وينهون ،

ويأخذون ولا يعطون .. ولذلك لم يستطع « اسماعيل » ان يتلاءم مع هذه الحياة الجديدة ، فاذا هو غارق في السكر الى شحمتي اذنيه .

أكانت هذه هي الصورة التي ارادت المسرحية ان تعرضها لهـــذا الانسان ؟.. كلا .. وانما كان ذلك هو اللون الخارجي لهذه الصورة، رداءها الظاهر .. كان وراء هذه الصورة مأساة انسان يحترق .. تأكل الخمر كبده ولكنها تزيد من وعيه ، ومن توهجه ، ومن شدة احساسه بالحياة من حوله ، بالحياة الكريمة التي يئدها مجتمعه ، ويقتل فيهـــا اخوه « حسنين » معاني الخير ..

ان نبعة الاحساس عند « اسماعيل » نعمة غريبة ، نبعة حارة ، دافئة، من ارض باردة .. وعلى حين كان من المنتظر ان يمثل هذا السكـــران كل معاني البلاهة والبلادة والغيبوبة ـ فانه كان يمثل ، في رداء مـــن البلاهة والبلادة والغيبوبة ـ كل معاني الوعي والتنبه والادراك ..والجمل الحازمة القصيرة على شفتيه كانت ، في لحظاتها المناسبة ، تضع الامور في مواضعها ، وتحاول ان تعيد القيم المحطمة ، على يد اخيه وتصرفاته، الى الاذهان والقلوب .. ان سكر « اسماعيل » هو الذي اثار الوعي، وهذه النبتة لم تكن نبتة شيطانية ، وانما كانت نبتة ملائكية الجذور ، سماوية الساق ، في ارض طبقتها السطحية شيطانية .. ان رائحـــة الخمرة كانت تواكب كل لحظة من لحظات حياة « اسماعيل » ولكنها كانت تحاول ان تطرد من المجتمع روائح الخبث والعفن والضلال .. ولعله من اروع ماكان في المسرحية هذه الاواقف الواعية التي كشفها اسماعيل « الخميسي » بسكره ، والضوء الذي سلطه من عينيه اللتين اطبقهما السكر ، والقوة التي كانت في ملاحظاته وتعابيره على ذبول شفتيـــه وتراخيهما .. ان سكر « اسماعيل » كان في حقيقته وعيا كاملا .. لـــم يستطع الجيل الجديد ممثلا بـ « ممدوح » ـ ابن حسنين وابن اخـــي اسماعيل ـ ان يدركه بوضوح ، ولم يستطع هو ان يعبر عنه بوضوح .. وانما امل يلجلج به ، ويومىء اليه ، ويرقبه .. انه كان يحيا هذه المأساة العنيفة مأساة الخمرة ، ويحيا مأساته الكبرى : مأساة ادراك كل شيء، وعدم القدرة على التصريح بكل شيء .. كانت تلك مأساة الجيل الـــذي اشعل فتيل الوطنية .. ثم وجد انه هو نفسه من ضحاياه وان الاجنبي لم يكن وحده ضحاياه .. تلك مأساة الجيل الجديد الذي شهد مبـــدأ الطريق الى الحرية ، والانحراف عن الطريق على يد بعض الذين قـــادوا معركة الحرية في شرقنا العربي

حـ ـ ولم يكن من هذه المأساة ان يعيش مثل جيل « اسماعيل » الواعي حياة السكر والغيبوبة ، فحسب .. وانما كان منها أن تكون هذه الحياة كذلك موضع الاتهام والتعنيف ، وموضع الازدراء والسخرية .. يشيرون الى رأسه الفارغ والى عقله المضطرب والى لسانه الذي لايبين .. ويكون من هذا الاتهام ان يعجز عن الدفاع عن نفسه الا بهذه السخرية المـــرة التي كانت تنثال على لسانه ، وتتبدى في حركاته .

ان شخصية اسماعيل كانت تسكر وكانت تدرك انها تسكر ، وكانت تكثر من الشراب وكانت تعرف ما الذي يقودها اليه الشراب .. ولكنها كانت تفعل ذلك كله عن وعي كامل لموقفها .. كانت تعرف انها بهـــذه الخمرة تحاول ان تنأى عن المجتمع الذي يضج بالفساد وان تسخر منه .. وكانت في الواقع انما تحتج عليه وتثور به ، وتلعنه وتتأبى على العيش الطبيعي فيه .. وقد كشف اسماعيل عن ذلك ذات مرة في فورات الانفعال حين صاح في وجه اخيه : « انا باسكر عشان افوق منك »

السكر والافاقة !.. السكر من نحو ، والافاقة من نحو اخر ، همـــا محور هذه الشخصية التي تمثل جيلا كاملا غلبه اليأس من اجيـــال وطننا العربي .

د ـ الشخصيات الاخرى : ممدوح

الشخصيات الاخرى في القصة قد لا تعبر عن المأساة هذا التعبير العميق .. هناك شخصية ممدوح الذي يمثل الجيل النقي الصافي.. انه كذلك عاش مأساة قصيرة بين حبه وبين معسكره .. ولكن هـــذه المأساة التي نعرفها جميعا في كثير من المسرحيات لم تكن شيئا جديدا.. بل ـ وأقولها منصفا ـ لم تقصد المسرحية اليها .. فما كانت لها ، ولم تركز اهتمامها بها ، ولم يكن لهذه الخصومة بين المعسكر والبيت بـــين الذهاب الى الجبل في السويس والبقاء في بيت الخطيبة ـ من شأن كبير في بناء القطعة ، وفي تمثيلها كذلك .

ان ممدوح في الواقع كان في المسرحية تعبيرا عن الانتصار .. واذا كان أبوه وعمه « حسنين واسماعيل » يهبان هذه الملهاة كل معالم المأساة العميقة ، كل تجاعيد الالم وسمات الحزن .. واذا كانا هما اللذين ينبضان فيها بالدمعة والاسى ـ فان شخصية « ممدوح » تعطي هذه المسرحية معنى الانتصار الذي يريده المؤلف والممثل للجيل الجديد .. الجيل الصافي الذي ترك الجامعة واقبل على التطوع ليحارب فيجبال السويس ورمال الاسماعيلية ، والذي ادار ظهره لمنطق المفاوضة وازور عنه .. الجيل الذي لا يستطيع ان يضع في حسابه المصلحة الخاصة ممثلة في « عزيزة بيانوتي » وفي اقامة الابنية وتأجيرها .. لقد ضحى ممدوح بكل الذي جنى ابوه ، بستين عاما من كده الذي كان يمكن ان ينتقـــل اليه سليمـــا وان ينعم به هانئـــا ، لانه كان يضع مصلحـــة وطنـــه نصب عينيه ..

ان القيم الوطنية تتقمص في شخص ممدوح على كل القيم الماديـــة الشرهة او القيم المنحرفة التي مثلهـــا ابوه .. ويعود الحظ الوطني السليم سليما في حياة الشعب ، وتحترق عزيزة بيانوتي ، ويكون احتراقها تعبيرا عن هذا الانتصار ، ويضحي جيل « ممدوح » بدمه وماله وروحه من اجل انتصار الوطن ، وتبدو الحياة من جديد في مصر ذات معنى بعد ان افقدتها سنوات الانحراف معناها الصافي ، ويتابع الشعب بعد ذلك ثوراته ، بعد أن يزيل عن ثورة ١٩١٩ اكداس الاتربة والرمال التي انهالت فوقها فطمست ألقها ، وحجبت عن الناس انوارها الهادية .

ان فضل هذا الانتصـــار يعود ، في قسم كبير منه ، الى هـــذه الشخصية الغائبة الحاضرة ، المخمورة ـ الواعية ، شخصية اسماعيل.. فقد كان ، على غيبوبته ، عنصر الرقابة .. وكان ، على تأرجحه نقطـــة الثقل .. وكان عنصر التنبه اليقظ على كل مظاهر الغفلة والبلادة .

صدر حديثـــا

سبعون	الرحلة الثالثة لميخائيل نعيمة	٦٠٠
علم الاقتصاد جزءان	ترجمة برهان دجاني	١٧٥٠
الشاعر القروي	بقلم عبد اللطيف شرارة	٢٠٠
الرصافي	« « « «	٢٠٠
ابو القاسم الشابي	« « «	٢٠٠
المحاسن والمساوىء	للبيهقي	١٢٠٠
الغربال	طبعة جديدة لميخائيل نعيمة	٣٥٠

الناشر : دار صادر ـ دار بيروت

٢ ـ الاجيـال الثلاثة في المسرحية

وكذلك التقى في هذه المسرحية ثلاثة اجيال . جيلان منها يمثلان المأساة ، كل منهما ـ حسنين واسماعيل ـ يمثل وجها لها .. وجيل ثالث يمثل الانتصار على المأساة وهو جيل « ممدوح » .

أ ـ اننا حين نضع المسرحية في نطاقها من الحركة الوطنية ومن التاريخ لهذه الحركة نستطيع ان نلمح فيها هذه الاجيال الثلاثة المتقاربة او المتعاقبة :

واحد منها هو الذي يمثل ثورة ١٩١٩ واستمساكه بقيم هـذه الثورة واصراره عليها بالرغم من كل ما لقي من عذاب السجن والامه .

وواحد منها هو الذي يمثل الانحراف بثورة ١٩١٩ عن طريقهـا السليم ، ويغفل عن قيمها ، ويستبدل بقيمها هذه سلما اخر مقلوبا ، في درجاته العليا ما هو أدنى ، وفي درجـاته السفلى ما هو خير .. ويحاول ان يجد لسلوكه وقيمـه المبررات .

وواحد منها هو الذي يمثل الصحوة الجديدة ، ويرث عن عمه ـ لا عن ابيه ـ القيم الصحيحة لثورة ١٩١٩ ويجددها في الثـورة على الانجليز ومطاردتهم ، ويبدأ ايمانه من الايمان بالله والايمان بالحق والايمان بالشعب ويترك لهذا الايمان ان يسيطر عليـه سيطرة كاملة ، ويقدم له زيت وقوده من دم حياته .

وهذه الاجيال الثلاثة اقتضت كذلك ، بطبيعة الحال ، انماطا ثلاثة من السلوك ، اوحت بها الظروف التي احاطت بها .. وكان وراء هـذا السلوك هذه النفسيات المختلفة التي تحدثنا عنها .

ب ـ هذا اذا نحن وضعنا المسرحيـة فـي نطاقهـا مـن الحركـة الوطنية .. اما حين ننظر اليها من وجه فني فاننـا نستطيع ان نؤكد الظاهرتين التاليتين :

الاولى : ان معنى « الكوميديا » لم يكن قط واضحا في اذهـان الذين ألفوها او في اذهان الذين مثلوها .. على النحو الذي اشرت اليه من قبل .

والثانية ان جانب المأساة في هذا العمل المسرحي كان ايجابيا .. فقد انتهى الامر الى انتصار الجيل الجديد ، جيل المثل الاعلى ، مرة على نفسه .. بالمعنى الضيق .. اعني على الحب ، ومرة اخرى على بيته واسرته ومجتمعه ، وبخاصة على اعدائه الخارجيين .. اعني علـى الانجليز ، ومحاربتهم وجلائهم .

٣ ـ ما هو المرتكز النفسي لهذه المسرحية ؟

تلك هي المسرحية بوجه عام .. ولكننا نحب ان نتساءل عـلام يقوم بناء هذه المسرحية من نحو ادبي ؟.. ما هو الخيط الاسـاسي الذي يلضم كل اجزائها من داخلها ، والطابع البارز الذي يبدو عليها في وجوهها الظاهرة ؟.. هل هنالك سمة اساسية يقوم عليها البنـاء الفني ؟..

قد تكون هنالك مجموعة من السمات التي تكون وجه هذا العمـل الفني .. ومع ذلك فان هذا العمل يبدو قائما على مرتكز واحد اساسي، ذلك هو التنبه الى التناقض في المجتمع ، وابراز هذا التناقض فـي التأليف والاخراج ، وتمسك في لغة الرواية واسلوبها .

ان التناقض هو الخط الكبير الذي كان يعيش فـي ذهـن المؤلف والمخرج ، وهو المرتكز النفسي والفني لهذا العمل الذي كتبه السعدني واختاره واخرجه الخميسي .

ولعله من هذا التناقض ـ فيما يخيل الي ـ نبتت فكرة المسرحية، واتخذت من الحركة الوطنية مدارهـا ومظهرها .. بمعنى ان النبعة النفسية هي التي تسربلت بالجو التاريخي ، او بتعبير اخر ، ان التناقض كان هو الموضوعة الاولى في هذا العمل .. ولكنه لم يبد مجردا ، ولم يكن له ان يبدو مجردا في العمل الفني .. لان المؤلف لم يقصد الـى مسرحية فكرية مجردة او مسرحية يغلب عليها الطابع المجرد كما في اهل الكهف .. وانما وجد المؤلف الحادثة او الاحداث التاريخية ، فتعلـق بها ونسج عليها نسيجه النفسي الخاص .

من التحرير

* يعتذر التحرير عن عدم تمكنه من نشر كثير مـن المواد التي تلقاها لهذا العدد ، وفيها ماهو قيم فعلا ، ويرجو ان تنشر هذه المواد في الاعداد التالية .

* تشكر « الادب » الاديب الفنان الاستاذ شريف الراس الذي أسهم بهذا العدد باهداء المجلة تصميـم الغلاف الجديد لهذا العام .

وانا في هذا لا احث ان اخرج الرواية عن مدارها التاريخي .. ولكني اريد ان ادل على ما وراءه في نفس المؤلف وفي اختيار الخميسي لهذه المسرحية وارتضائها .. وسيظل الحادث التاريخي واضحا ، ولكـن النقاش سيظل يدور حول هل كانت هذه الاحداث هي الاصل .. وايهما كان نقطة البداية في نفس المؤلف وفي ذهنه ؟

مهما يكن من شيء فنحن نحس هذا التناقض واضحا حين نشهد المسرحية .. انه التناقض بين هذه الاجيال الثلاثة ، والجماعات التـي وراءها .. التناقض الذي كانت تعيش فيه الحياة في فترة ما قبـل المعاهدة وما بعدها .. وانه ليظهر في اعمال الابطال وعلى السنتهم ، في تصرفاتهم واقوالهم .. وقد كانت الحياة مظهرا خصبا لهذا التناقض، لان هذا الجيل كان يحيا حياة غريبة .. كان معلقا بين الواقع والمثل ، متأرجحا بين الخنوع والثورة ، مضطربا بين الاستسلام والتأبي ، ضائعا بين الصحو والسكر ، ينوس بين البلاهة والذكاء ، وبين الشبع والفقر، وبين القصـر والكـوخ ، وبين الجهل والعلم ، وبين البناء والخـراب، وبين الشرف والسرقة ، وبين الامانة والخيانة ... ان كل هذه المظاهر من التناقض وعشرات امثالها كان يتنفس فيها هذا الجيل وكان يختنق بهـا ايضـا .. بعـض الذين كانـوا يتنفسـون وهـم يفتشون عن المبررات « حسنين » .. وبعضهم كان يتنفس فيه ولكنـه كانت تلتمع لعينيه صور الشرف والامانة فيدعي الاستمساك بها وهـو غارق الى اذنيه في الخيانة والسرقة « المعلم الش » .. وبعضهم كـان يختنق فيه كما كان شأن اسماعيل .

وقد كان لا بد لهذا التناقض الصارخ من ان يتمزق ، وان يخرج من هذا التمزق جيل جديد يحاول ان يرد الامور الى نصابها .

وقد بدا هذا التناقض في اجزاء المسرحية واضحا .. واضحا في علاقة ما بين الشخصيات ، وواضحا في سلوك هذه الشخصيات نفسها.

في نطاق ما بين هذه الشخصيات كان هـذا التناقض في بيت حسنين ، بينه وبين اخيه اسماعيل ، بينه وبين زوجته ، بينه وبين ابنه.

وفي نطاق الشخصية وحدها كان هذا التناقض الذي عبرت عنه مأساة حسنين نفسه ، ومأساة اسماعيل ، ومأساة المعلم الش .

وتجسد هذا التناقض في طائفة من الاعمال في نطاق التأليف ، وفي طائفة من الاشارات والحركات والحوار في نطاق التمثيل ، كلهـا جديرة بالاشادة بها والتقدير لها .

وانعكس هذا التناقض كذلك في الاسلوب الذي كتب به الحوار وأدي به .. بل لعل هذا الاسلوب هو الذي كشف عنه ودل عليه .. فهناك دائما في اكثر اجزاء الرواية هذا التناقض الذي يبدو فـي الاشياء (الورقة للف زجاجة الخمرة او للف المواسير ـ وفتح الزجاجات وفتح البيوت ـ والمصلحة العامة والمصلحة الخاصة).. والتناقض الذي يبدو في تجانس الالفاظ (أخ ، لنداء الاخ في سـاعة العسرة ، واخ للتأنف من الشدة .. وامثلة كثيرة اخرى) .. والتناقض الذي كتب به الحوار وادي به والذي استطاع (المعلم الش) ، في موقف من مواقفه ، ان يعبر عنه ابلغ تعبير حين تحدث عن غاراته في جبل السويس الـى الاب « حسنين » والابن ممدوح .. الى جيلين مختلفين متنابذين ، لكل منهما وجهة : وجهة الاب الذي يريد من الغارة سرقة المواسير مـن المعسكرات ، والابن الذي يريد من الغارة زحزحة الانجليز عن هـذه

ـ التتمة على الصفحـة ٩٨ ـ

عزبة بنايوتي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨٣ ـ

المعسكرات وترويعهم .. كان ابن البلد (ألش) اشد ما كان براعة حين مثل هذا التناقض في الحوار وفي الاداء .. فقد كان له من لغته المنطوقة ذاتها ، ومن اللغة الاخرى لغة التمثيل لغة العين والحاجب واليد ، ومن اللغة الثالثة لغة الايحاء والاغراء والتأثير ـ كان له من هذه اللغات الثلاث رصيد ضخم .. وفق فيه ـ في موقف حذر دقيق كهذا الموقف الذي كان فيه الاب والابن ينتظر انباء الغارة ـ الى ان يطمئن كلا منهما عن غايته ، وان يشير الى انتصاراته .. ان طعن الاعداء وسرقة المواسير ـ على التناقض البعيد العنيف بينهما ـ كانا يتلاقيان في لغته وتمثيله احسن تلاق .

٤ ـ مبررات هـذا التنـاقض

اني حين اشير الى هذا التناقض كمرتكز نفسي اساسي لهذا العمل الفني اجد ان مظاهره اكثر من ان تعد .. ولكني احب ان اذكر انـه هو الذي ينعكس في اختلاط الامور على الجيل المتقدم ، جيل ما قبـل المعاهدة وما بعدها .. سواء منه الجيل الذي يقف في القمة «حسنين» او يزحف على الارض « المعلم ألش وعصابته » .. انهم سواء في هذا التناقض .. وليس يستره او يغطيه محاولات التبرير التي قام بهـا حسنين ، فقد كانت هذه المحاولات قصيرة ، اذا سترت الرأس كشفت القدمين ، واذا غطت القدمين عرت الرأس .. ولهـذا لم يكن لمنطق الاستعمار مكان ما اذ كان منطقا متهافتا .. ان هذا الاستعمار الـذي كان يقول على لسان حسنين اننا بحاجة الى علماء لا الى ثائرين .. والذي كان يقول ان التلاميذ يجب ان ينصرفوا عن السياسة ، والذي كان يقول ان الانجليز لا يغلبون ـ لقي هزيمته في تمزق حسنين بقلبه.. اعني بفؤاده .. وفي قيادة الجيل الجديد ومبادهته ، وفي اجـلاء الاستعمار وطرده .

هذه التبريرات التي كانت تحاول ان تكون « عاقلة » ، يقابلهـا تبريرات اخرى لهذا التناقض .. ولكنها تبريرات ساذجة بريئة لا تأتي هذه المرة على لسان الطبقة العليا في المجتمع على لسان (حسنين) ، وانما تأتي على لسان الطبقة الاخرى ، على لسان (المعلم ألش) الذي آلف ببساطة ويسر بين الشرف وبين الخيانة ، بين اللصوصية وبين الجهـاد ، بل آلف بين السرقة وبين الغنائم في لحظة من لحظات المسرحية كانت موفقة كل التوفيق .

ولكن التنـاقض لا تنهض له هذه البررات ، ولم يكن بد من ان تنمزق الشرنقة عن ولادة فراشة جديدة .. عن ولادة الجيل الذي مثله « ممدوح » والذي عبر عنه الجيل السابق له بلفظة لهـا في اللهجة المصرية وفي بعض مجتمعاتها التي اعرفها ، في مجتمعات السياسة وفي مجتمعات الجامعة ايحاء غريب ،فيه من الحنان اكثر مما فيه من النقد ـ هي لفظة « الاولاد » .

ان « الاولاد » الذين ظهروا على مسرح الحياة كما ظهر ممدوح ورفاقه على المسرح هم الذين كشفوا زيف الجيل ، ودلوا على تناقضه بعفويتهم .. لم يصلوا الى ذلك عن تعمق وفلسفة ودراسة ، ولم يأتوا من وراء البحر ، ولم ينزلوا من السماء ، ولم يصلوا كخبراء يدرسون ويعتكفون ويقررون ثم يخرجون ليشيروا الى الزيف والتناقض .. وانما احسوه احساسا عفويا ، وعبروا عنه احيانا من وراء ادراك غائم .. ان « ممدوح » احس في الجو الذي يعيش فيه قريبا من المعركة برائحة غريبة ، ولكنه لم يستطع ان يتبينها .. كان ينظر الى ابيه ، وكان يرى المعلم ألش ، وكان يسمع عمه اسماعيل السكير ، وكان له مع زملائـه قرارات وغايات .. ولكنه كان ـ بصفائه ـ يحس ان الارض التي يمشي عليها ليست دمثة ولا طرية ، كأنما تحتها فحيح أفعى او حركة عقرب .. ولذلك انطلق ذات مرة يقول ببساطة (انا مش فاهم .. فيه ايه !..).. ان هذا الجيل الجديد يعبر عن الصفاء ولا يعبر عن الادراك العميق ، ويمثل العفوية ولا يمثل التجربة ، ويستطيع ان يبلغ غايـاته وسط الالغام الكثيرة التي توشك ان تنفجر تحت قدميه .. وانه ليتعـاون باخلاص مع كل المواطنين لانه يفترض فيهم الخير جميعا ثم لا ينقذه من انحراف بعض هؤلاء المواطنين الا رعاية الله له ، وقدره في ان يسلم اليه امر الوطن .

مهما يكن من شأن عنصر التبرير في المسرحية ، فان التناقض يظـل الركيزة الاولى التي لا تغطيها هذه المبررات بمقدار ما تكشفهـا وتدل عليهـا .

٥ ـ ماذا تجسد عزبة بيانوتي ؟

بقيت كلمة قصيرة احب ان اقولها عن عزبة بيانوتي نفسها .. ان هذه العزبة التي بناها حسنين وأفنى في سبيلها جهـده وقواه واهدر كرامته ، تجسيد رائع لكل مطامع الجيل المنحرف الذي ألهتـه المادة وخرجت به من ثورة سنة ١٩١٩ الى النقيض .. الى التعاون مع الانجليز، وسممت تفكيره ، وشوهت في ذهنه كل المنطق الفكري ، وفي حيـاته كذلك كل المنطق النفسي السليم .. صرفته عن زوجته الحسناء وحببت اليه ، في بعض المواقف السريعة ، حركـات خادمته .. وفي القدر الضئيل من الالتفات الى النساء ، في لحظات عابرة ، أعطى «حسنين» في المسرحية خادمته اكثر مما اعطى زوجته فكـان ذلك تمثيلا لهذا الانحراف النفسي الذي كانت العزبة ، بهمومها وديونها واثقالها سببـا فيـه .

وصحيح ان العزبة لم تظهر على المسرح ، وما كان لها الا باسلوب من اساليب الاخراج التي لا تتسع لها ، فيما يبدو ، ثروة فرقة عبـد الرحمن الخميسي وقدرة مسرحه المستعار .. ولكنها كانت دائما في اذهاننا ومعنا ، لانها كانت في كل شيء ووراء كل شيء من تصرفات هؤلاء الممثلين .. وكانت بخاصة على لسان « حسنين » وفي ذهنه ، في عقله وقلبه ، في حياته الداخلية وفي حياته الخارجية .. لم تختف ابدا عن الساحة الخلفية للمسرح ، وانما كانت تبدو لاعيننا في البعد الرابع ، ولم يستطع شيء ان يغطيها .. كان املها الحياة لحسنين وأزمتها الموت له ، كان يعيش بها ، ولها ، فاذا اوشك ان ينقطع حبـل قلبه ذكرها فعاش .. كانت حياته المادية وموته المعنوي ، وكانت جماع نشاطه في الحياة وجماع انحرافاته .. كان قيامها ايذانا بموت جيله واحراقها ايذانا بحياة الجيل الجديد .. ان العزبة هي تجسيد مادي لكل هذه المطامع والانحرافات .. أفكانت تسمية للرواية بها واختيار اسم « بيانوتي » لها تعبيرا يجعل هذين القطبين الكبيرين في حياة الاقليم المصري قبل ثورة ١٩٥٢ .. الاجانب من ناحية والمطامع المادية الشرهة من ناحية اخرى .. أكانت لفظتا « عزبة » و « بيانوتي » تركيزا لهـذا الواقـع !

٦ ـ المرأة ، والجيل في المسرحية

وبعد ، فقد كنت اتمنى ان اتحدث عن ناحيتين اخريين من هذه المسرحية : عن المرأة فيها وعن الجيل الجديد ، جيل « الاولاد » .

ولكني اشعر ان الحديث قد طال من نحو .. وان المرأة لم تكـن على بال المؤلف (في حدود النص الذي سمعناه في المسرحية) ولا على بال المخرج في كثير ..

ان القدر الذي احتاجت اليه المسرحية من (المرأة) استطاعت ان توفق فيه ، وان تكتفي به .. استطاعت زوجة حسنين ـ الى جانب خادمته في بيته وابنة اخيه وزوجة المعلم ألش ـ ان تعطي المسرحيـة

من ذلك ما تحتاج اليه ، دون تبذل او اغراق او الحاح .. اذا استثنينا الصراخ المتصل لامرأة المعلم ألش .. انها كانت بقدر ما يجب ان يكون الملح في الطعام عند ذوي الاذواق المعتدلة .

اما « الاولاد » ، سـواء اولاد الجامعة ، او الاولاد الاخرون ، اولاد البلد .. الذين يأكلون الحجر ، هؤلاء الذين هم « أنصح من العفاريت الزرق » فان لهم حديثا اخر كنت أطمع ان اقوله ، وان اتحدث عن الاعباء التي القتها المسرحية عليهم ، والمهمات التي ندبتها لهم ، ووجه الحياة التي ارادت لهم ان يغيروه .. ولكنهم لم يفلسوا ، ولم ينحرفوا ، ولم يتمزقوا .. كانت مهمتهم فوق طاقتهم ، وشوطهم ابعد من قدرتهم، وواقعهم اقسى من عضلاتهم ، ولكنهم مضوا .. انتصروا على الانحراف والتناقض والتمزق ، واستطاعوا ان يكشفوا عن الافق الجديد للحياة الجديدة حين شقوا هـذا الافق في السويس والاسماعيلية بايمـانهم وبنادقهم .

لقد سكن هؤلاء الاولاد عزبة « بيانوتي » وتركوها تحترق .. ان ذلك هو بالضبط التعبير عن دورهـم .. وجدوا في وسط الظلام ، واستطاعوا ان يخرجوا منه .. ان النار التي احرقت العزبة هي التـي اتت على الاستعمار القديم ، وهي القوة التي هدمته وبشرت بالحياة الجديدة وعملت لها .. وكان زواج « حسنية » من « ممدوح » هـو التجسيد المادي لهذا الظفر، ظفر جيل الاولاد ، الظفر الذي يتوجه الحب.

ان هؤلاء « الاولاد » يحتاجون الى اكثر من هذا الحيز القصير الذي بقي لهم .

*

تمنيت لو كانت صلتي بالتمثيل اشد واقوى .. اذن لاستطعت ان اقول شيئا عن الممثلين .. ولكن حظي من ذلك لا يحول بيني وبين ان الاحظ دور المهندس « او الباشمهندس » دور ضعيف .. وان احـدا لا يتصور ان يكون « الباشمهندس » بمثل هذه التفاهة والبساطة ، بحيث يعطي المخطط الذي أنفق فيه ليله ونهاره للرجل السكير الذي تفوح منه رائحة الخمر بكل هذا اليسر وهذه السهولة اتراني اريد ان أقول شيئا عن المسرح ايضا ؟ عن « الديكور » الذي لم يتغير طيلـة الفصول ؟

*

لقد كانت حلوة هذه الليلة التي قضيتها اشهد عزبة « بيانوتي » على قلق القعد وضيقه.. كانت غنية ، مسرحية، وتمثيلا ، ورفقة ايضا.. كانت غنية رغم كل الفقر الذي تعيش فيه فرقة الخميسي فيما يبدو .. ولكن اليست هذه المجموعة الناشئة من ممثليها ـ واكثرهم في طراوة العمر ـ تعبيرا عن الجيل الجديد ؟.. تعبيرا عن هؤلاء « الاولاد » فـي الحيـاة الفنية ؟!

شكري فيصل

حفر بئر في حقل برقان

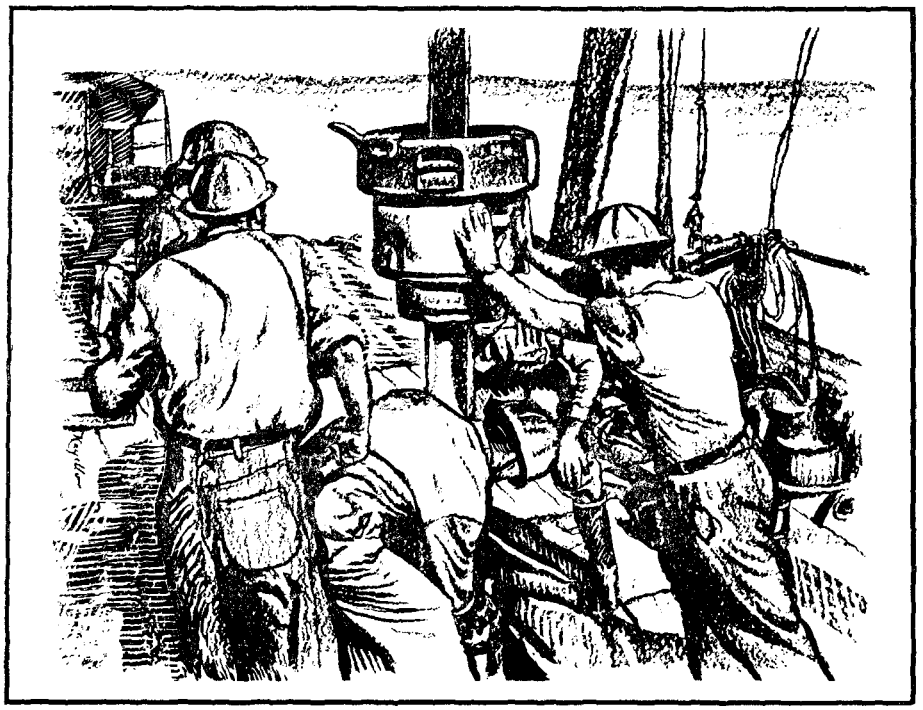

حفر الآبار عمل شاق يتطلب قدرًا كبيرًا من المهارة والجهد الجسماني ولقد حفرت شركة نفط الكويت حتى الآن أكثر من ٣٩٠ بئرًا ، جعلت الكويت رابع بلد منتج للنفط في العالم .

شركة نفط الكويت المحدودة